الملاح التائه الى متى ظل تائها ؟

مراجعة للتجربة الرومانسية من خلال شاعرها الكبير
على محمود طه

بقـــلم
أحمد ابراهيم خليل

(١)

أتاحت وفاة حافظ وشوقى بين اغسطس واكتوبر من عام ١٩٣٢ فرصة الذيوع لجيل من الشعراء نشأ بعد ثورة ١٩١٩ واختلفت رؤيته لطبيعة الشعر ووظيفته عن رؤية الجيل السابق اختلافا بينا ، فقد تأثر هؤلاء الذين جمعوا شتات جهودهم تحت لواء جماعة أبوللو بمؤثرات عدة لاشك أن منها تجربة خليل مطران وشـــعراء الديوان والشـــعراء المهجريين ودعتهم هذه التجارب المتأثرة بالآداب الغربية الى أن يوسعوا دائرة مصادرهم فيدخلوا فيها طرفا من هذه الآداب مترجما أو فى لغاته الأصلية • ولاشك أيضـــا فيما أحدثته ثورة ١٩١٩ من شعور المثقفين المصريين بذاتهم الفردية فلقد واجهوا الامبراطورية البريطانية بشجاعة وأجبروها على الاعتراف باستقلالهم ولم يبق أمامهم من تحد سوى ان يدعموا ذاتهم الفردية فتضخم شعورهم بأنفسهم من ناحية،وتأكدت عندهم الرغبة فى أن يخرجوا على نهج ســلفهم الباهر من الشـــعراء المرموقين من ناحية أخرى فكان ان ابدعوا شعرا غنائيا يسيل رقـــة وعذوبة ويفيض بعواطفهم الشخصية الجياشـــة وبتصوير حيـــاتهم الخاصة ومشكلاتهم الفردية خلافا لما كانت عليه طبيعة الشعر ووظيفته عند جيل شوقى وحافظ ومحرم وعبد المطلب وصبرى ونسيم والكاشف

واقرانهم وقد تألف هذا الجيل ــ الذى جمعــه الدكتور أحمــد زكى أبو شــادى فى حمى أبوللو ــ من شــبان متنوعى الثقافة ــ ما بين الطبيب ابراهيم ناجى والمحــاسب صالح جــودت ومحمد عبد المعطى الهمشرى والمهندس على محمود طه • وكان له نشاط أدبى مجاجل ظهر فى دواوين شعره وفى مجلتين احداهما لشعر الفصحى العربى والمترجم وللدراسات الأدبية والنقدية والأخرى (الامام) للأزجال العامية وما يتعلق بها من دراسات واجتذب نشــاط هذا الجيل أنظار كثــيرين من الشعراء الشبان فى مختلف الأقطار العربية فانضم اليهم أبو القاسم الشابى من تونس والتيجانى يوسف بشــير (من السودان) وعمر أبو ريشة من سوريا والياس أبو شبكة من لبنان وابراهيم طوقان من فلسطين(١) ولكننا نختار من بين هؤلاء الشاعر على محمود طه ليكون نموذجا لهذا الجيل فنتعرف من خلاله على تجربته الشعرية ونقيمها •

(٢)

ولد على محمود طه بمدينة المنصورة عام ١٩٠٢ وبها نشــأ وأتم دراسته الابتدائية ثم التحق بمدرسة الفنون التطبيقية فتخرج فيهــا سنة ١٩٢٤ حيث عمل بوزارة الاشغال وكان كثير التنقــل بين ربوع المنصورة وما يحيط بها من قرى ومدن صغيرة ، كان شديد الشــغف بجمالها الطبيعى كمدينة دمياط ومنطقة السنانية وشواطىء رأس البر وبحيرة المنزلة •

وفى سنة ١٩٣٣ أصدر ديوانه الأول (الملاح التائه) فلقى اقبالا شديدا من القراء وترحيبا من النقاد وكان قد انتقل الى القاهرة وبدأ يكثر الظهور فى الأوساط الأدبية •

---

(١) محمد مندور الشاعر المصرى بعد شسوقى الخلفة الثانية ص ١ نهضة مصر •

ثم أصدر بعد ذلك عـدة دواوين هى (ليـالى الملاح التـائه) و (زهر وخمر) و (أشباح وأرواح) و (الشوق العائد) (شرق وغرب) •

تنقل فى الوظائف بين المعرض الدائم لوزارة التجارة وبين ادارة مكتب الوزير ثم سكرتارية مجلس النواب • وكثرت منذ سـنة ١٩٣٨ رحلاته والى أوربا فزار سويسرا والنمسا وايطاليا والمانيا وغيرها وكثر حديثه عن هذه الرحلات فى شعره •

وعندما اتهم بقلة ثقافته حاول أن يرد على متهميه(٢) ـ بكتاب (أرواح شاردة) سنة ١٩٤١ وأكثر مقـالاته على الأدب الانجليزى والفرنسى وقد تحدث عن (فرلين) و (بودلير) الشاعرين الفرنسيين وترجم قصائد مختلفة لشعراء انجليز وفرنسيين والحق بذلك قصيدة له عن دخول الألمان باريس ـ وتأليفه لهذا الكتاب غريب ولكن يظهر أنه أراد أن يرد على من يتهمونه بقصور ثقافته فى الآداب الغربية وتوفى رحمه الله ١٩٤٩ •

(٣)

واذا أردنا التعرف على عـالم الشاعر من خلال ديـوانه الأول فسنجد أن تصوير مواقف الحب ، والحيرة أمام شقاء البشر وغموض مصيرهم ، وتأمل مكانة الشعراء بينهم والرغبة فى المعيشة داخل عالم الشعر الخيالى والترويح عن النفس بالاستغراق فى مظاهر الطبيعـة الجميـلة المحيطة به هى أهم موضـوعاته وبهذا يتضح لنا أنه يتبنى الموقف الرومانسى بمفهومه الغـربى ؟ ولكن الى أى مـدى ذهب به هذا الاتجاه ؟

---

(٢) شوقى ضيف ـ الادب المعاصر فى مصر ص١٦٦ ـ دار المعارف

فى قصائد كثيرة يحدثنا عن مواقع طبيعية بمدينة المنصورة وبما يحيط بها من مثل شواطىء دمياط والسنانية ورأس البر على البحـــر الأبيض وحقولها الغينانة الغناء وشواطىء بحيرة المنزلة وكانت جميعها مسرحا لعلاقاته العاطفية الفاشلة وبهذا تبدو الطبيعة الجميلة التى عنى الشاعر بتصويرها فى اناقة واسهاب ، اما خلفية جميلة لتجاربه فى الحب واما تعويضا جميلا لفشله فى مواصلة هذه التجارب واستمرارها أنظر (الشاطىء المهجـــور) و (عاشق الزهـــر) ويتحدث فى قصـــيدته (الأمسية الحزينة) عن برزخ من الرمال بين شاطىء البحـــر الأبيض وبحيرة المنـــزلة حيث تشرق أكواخ (أشتوم الجميـــل) من بوغازها الصامت على آثار قلعة منهدمة انظر كذلك على الصخرة البيضـــاء وفى القرية • ولا يكتفى الشاعر بما يبث من أشجان فى قصائده المصـــورة لغرامه الشخصى البائس بل يضيف اليها قصصا عاطفية منسوجة على نفس المنوال من وحى خياله الحزين فنسمع منه الى نغم شـــجى فى قصيدتى (أغنية ريفية) و (أيتها الأشباح) اللتين تنتهيان النهاية المأساوية الرومانسية المألوفة • مما لا داعى الى اطالة الوقوف أمامه • على أن نفس الشاعر تبدو من الرقة والعذوبة والسعة بحيث يستطيع بسهولة أن يستوعب أحزانه ولا يجعلها تضعف من اقباله على الحياة وانما يفلسفها بحكمة تصبح معها الأحزان فرصة طيبة لتذوق الجمال الروحى فى الحياة والاستغناء به عن متعها المادية والمتفلتة من بين يديه فهو يقول عن الشقاء الانسانى :

لا تقل كم أخ لك اليـــوم فى الأر
ض شقى الوجدان أسوان حائر (٣)
ان تكن ســـاورته فى الأرض آلا
م وحفت به الجـــدود العـــواثر

---

(٣) ديوان على محمود طه الكامل دار العودة ـ بيروت •

فلكى يستشـــفا من خـــــلال الغـ
يب جمالا يذكى شـــباب الخواطر

ولكى ينهـــل الســـعادة من بذ
ل شـــــهى الورود عذب المصادر

فالانسان عنده يشقى لكى (يستشف من خلل الغيب جمالا يذكى شباب الخواطر) ويبعث فيها الحيوية والنشاط ولكى (ينهل السعادة) من (البذل) والعطاء بدلا من ألا يسعد الا بالأخـــذ فقط • فيا لها من مثالية !

وكما بحث الشاعر فى جمال الطبيعة عن تعويض لقبح الحيـــاة وشقاء الانسان فيها ؟ بحث أيضا عن هذا التعويض فى جمال الفن ؟ ففى عدة قصائد مثل (ميلاد شاعر) ؟ (الله والشاعر) (لفن الجميل) يبدو ايمان على محمود طه بالجمال الفنى عزاء له عن فساد الحيـــاة ومهربا من أزماتها ومشاكلها مما يؤكد رد ما نسبته نظرته فهو يقول عن الفن :

ملأ الكون من أياديه ســـــحرا
وبنى ملكـــه وشد كيـــــانه
وحياه الخلـــود فى العـــالم الفـــا
نى وابقى على البلى سلطانه(٤) ص١٣٩

هو فجـــر النبوغ يصـــــدح فيه
كل من أطلق الهـــوى وجـــــدانه
وسماء للشاعر الفذ منهـــــا
يســـتقى الشعر وحيه وبيـــــانه

---

(٤) الديوان ص ١٣٩ •

تجتلى ريشة المصـــور فيهـــا
كل عذراء لا تـــرد بنـــانه
وهو فيثـــارة الخلـــود عليها
يعزف الطـــير فى الربى ألحـــانه

ونلاحظ انه يحتفى بالفن بجميع أنواعه من موسيقى وتصـــوير فضلا عن احتفائه بفنه الخاص وهو الشعر بطبيعة الحال • كما نلاحظ تأثره بموسيقى شوقى وأخيلته فى قصيدته عن الربيع من نفس الوزن والروى(٥) •

على أن هذا التعويل الزائد من الشاعر على الفن سينجم عنـــه بالضرورة تحميله أحلاما هائلة وطموحات عريضة فهو يعلق على كاهل الفن آماله العذبة فى النجاح الجماهيرى الكبير والمجد الأدبى الخالد • فاذا استبطأ الشاعر تحقق هذا النجاح • أصبح الفن عندئذ هما جديدا من همومه وسببا آخر من أسباب حزنه وشقائه ،وهكذا تحمل هـــذه القصيدة وقصيدة (الله والشاعر) و (عزفه الشاعر) و (ميـــلاد شاعر) و (الطريد) صورا من احساسه بمرارة الأمل المحبط والطموح المستعصى على التحقيق • ويجب ألا ننسى أنه ما من شاعر شـــاب فى تلك الفترة الا وراوده الحلم بأن يبلغ ما بلغ شوقى من النجاح والمجد المادى والمعنوى الذى جعله اسطورة من الأساطير •

ولا يقف تعبير الشاعر عن أحلامه وطموحاته المحبطة عند حـــد الصور المباشرة فى القصائد السابقة بل يتعدى ذلك الى لون من الشعر غريب عن بيئته وشخصيته يصور نوعا من التساؤلات (الميتافيزيقية) فى حيرة ساذجة مفتعلة أمام أسرار الكون وحكمة الوجود تنعكس فيها قراءته المحدودة للشعراء الفرنسيين وتأثره المصطنع بهم • ولاشك فى

---

(٥) أحمد شوقى (الشوقيات) جـ ٣ ص ٢٤٥ •

أن قلق الشاعر ازاء مستقبله الشخصى واشفاقه من ضياع أحلامه وتبديد طموحه هو الذى جعله يتغنى بالحيرة المصطنعة أمام الموت ومصير الإنسان بعده والحياة والغاية منها والقيم الأخلاقية وكيفية التمسك بها أمام فتنة الحياة ومغرياتها • ومنذ الاهداء الذى تصدر ديوان (الملاح التائهة) تجابهنا هذه الحيرة المتكلفة « الى أولئك الذين يناديهم الحنين الى المجهول الى التائهين فى بحر الحياة !

الى رواد الشاطىء المجهول ! اهدى هذا الديوان » فلاحظ أيضا دلالة عنوان الديوان ، وكيف أنه اتخذ من التيه شعارا له ! وفى قصيدة [الله والشاعر] وهى من مطولاته التى احتشد لنظمها ، وقد صدرها بعبارة الشاعر الفرنسى لامرتين يتضح مدى تأثره به وبالفكر الرومانسى عموما من حيث التعلل بالجبرية والتشكى من مظاهر البؤس والشقاءعلى الأرض والضراعة الى الخالق لتخفيف آلام البشر والتغنى بالحيرة من أمر الموت ومن مصير الانسان بعده •

حنانك اللهم لا تغضب
انت الجميل الصفح جم الحنان(٦)
ما كنت فى شكواى بالمذنب
ومنك يا رب أخذت الأمان
ما أنا بالزارى ولا الحاقد
لكننى الشاقى شقاء البشر
افنيت عمرى فى الأسى الخالد
فجئت استوحيك لطف القدر
تمردت روحى على هيكلى
وهيكل الجسم كما تعلم

---

(٦) ديوان ص ٨٩ •

ذلك الضـــعيف المرأى لم يفعـل
الا بمـــا يوحـــى اليـــه الدم

ثم يقـــول :

تقـــول روحى انهـــا ملهمة
فهى لمـا قـــدرته متبعـــة
مقـــودة فى ســـيرها مرغمة
وان تـــراءت حـــرة طيعـــة
قيدتها بالجســـم فى عـــالم
تضج بالشهوة فيه الجســـوم
كلاهمـــا فى حبـــه الآثـــم
لم يصح من سكراه وهو الملوم

ويبدو أن الشاعر قد وجد فى اصطناع الحيرة ما يبعث الحرارة فى شعره ؟ كما وجد هذه الحرارة فى وصف مشاهد الطبيعة العنيفة فهو فى قصيدتى [عاصفة فى جمجمة] و [الطريد] يحدثنا عن ثورة فكرية حادة تضطخب فى رأسه من غير أن يحاول أن يوضح لنا معالم هذه الثورة وماهية الأفكار المشتعلة التى أطال وصفها وفى قصيدة (القطب) التى نظمها على أثر مشاهدته شريطا سينمائيا عن القطب الشمالى نجد وصفا حسيا وتلميحـــا الى غموضه فهو يجعله مســـكنا للجن والمردة والشياطين ثم يتساءل عن سر جاذبيته وتبدو رغبته فى المحـــافظة على الاحساس بهذه الحيرة التائهة المشدوهة أمام غرائب الطبيعة فهو يؤكد أن أسرار القطب ستظل مكنونة لن يستطيع العلم أن يكتشفها وسيظل وجهه الحقيقى ملثما مهما حاول العلماء أن يميطوا عنه اللثام .

هو ليـــل من الغيـــاهب صافى
وأديم فى لجه الثلج خافى (٧)
وبحار ان ردتها لم تجد غـــير
جلـيد من لجـه وضـفاف
وجبـــال من الثـلوج تدجى
رائعـــات المسفوح والأعراف
وصـحارى لا ينتهى الركب فيها
عند صخر أو واحـة منـــاف

ثم ينهى القصيدة بقوله :

قيل حاموا على ذراك وألقـــوا
فوق واديك نظـــرة استكشاف
وأراهـم فى زعمهم قد اسـفوا
بك يا قطب ايمـــا أســفاف
تشـــهد الـكائنات انك أمسيت
وتمس سر الوجـــود الخـافى

ان الشاعر فى هذه الأسباب الأخيرة يبدو كما لو كان يتمنى أن يبقى يبقى القطب سرا مكتما يكتنفه الغموض وتعمه الظلمة لا لشىء الا لأن هذه الفكرة تروق صاحب الموقف الرومنسى العاشق للضباب والغموض والابهام.فهذه الأمور تثبت فى نفسه الرهبة وتستجيش مشاعره وانفعالاته ومن هنا نفهم كيف يدعى الشاعر الحيرة ازاء حقائق الوجود وأسرار الكون من غير أن يكون حائرا بالفعل •

---

(٧) ص ١٢٦ •

(٤)

خلاصة ما تقدم أن موضوعات الشاعر الأثيرة فى ديوانه الأول هى الحب والطبيعة والحيرة المصطنعة وفى الدواوين التالية سنرى هذه الموضوعات وقد نالها شىء من التحوير والتطوير فالحب يتخلص من أشجان الفراق وأحزان الفشل ليصبح حبا حسيا مشتعلا مشغوفا باللذات الجسدية والمتع المتاحة والطبيعة المصرية فى ضواحى المنصورة وما حولها تستبدل بها الطبيعة الأوربية وتستمر مع الشاعر حيرته المصطنعة ويستخدمها مبررا لتهتكه وعربدته التى يبدو انه استهواه أن يشتهر بها ليكون (لورد بيرون) الشرق .

فى (ليالى الملاح التائه) يواجهنا الاهداء الذى يذكرنا بمثيله فى الديوان الأول ويؤكد أن الشاعر حريص على اعطاء القارىء انطباعا معينا عن شخصيته وفى هذا الاهداء يقول :

« الى الذين أطالوا التأمل فى أسرار الكون
أرهقهم التيه فى مجاهل الحياة
الى العائدين بأنس أحلامهم الى وحشة مضاجعهم
بين اللهفة والحنين
الى المتطلعين عبر الشاطىء المهجور فى ارتقاب
عودة الملاح التائه
اليهم جميعا أقدم وحى لياليه واهدى بعضا
من أشعاره وطرفا من حديث أسفاره »

وتتجلى نزعة الغزل الحسى منذ أولى قصائد هذا الديوان لـ (الجندول) و (القمر العاشق) و (حلم ليلة) و (الى راقصة) و (فى الشتاء) —
يصطنع فى بعض خمرياته طريقة عمر الخيام ويتغنى بالحيرة

والأسف على الموت والزوال فى قصيدة (كأس الخيام)

وفيها يفلسف مجونة بقدرة على الجدل واللجاج أكبر مما بدا

فى قصيدة (الله والشاعر) من الديوان الأول

أروى يا شـــاعر عن اشراقهـــا
انما كأسك نور وصـــفاء(٨)
كيف طـــالعت عـــلى أفاقهـــا
روعـــة الغيب وأسرار السـماء
كيف أبصرت الجمـــال المشرقـــا
بصر الفنـــان فى حـــب الالـــه
وفتحـــت الأبـــد المســـتغلقا
عن ضمير الكون أو سر الحيـــاة
ابروحـــانية الفن العـــريق
أو ببوهيميـــة الفن الطلـــيق
مرسلا روحك فى الكون السـحيق
حيث لا يسـمع طـــاف لعـــريق

وفى هذا الديوان يترك وصف الطبيعة المصرية وينتقل الى الطبيعة الأوربية فى قصيدة نظمها عن (بحيرة كومو) بايطاليا • أهداها الى أديبة أمريكية انظر كذلك (تابيس الجديدة) و (خمرة نهر الراين) •

ويعد ديوان (أرواح وأشباح) و (زهر وخمر) امتدادا لوصف الطبيعة والخمريات والغزل الحسى فى شعره السابق واذا كان فى ليالى الملاح التائه يستوحى عمر الخيام فقد بدأ — بحكم السن — يستوحى أبا العلاء المعرى فى (الشوق العائد) انظر فى ذلك (امرأة وشيطان)

---

(٨) ص ٢٣٦ •

و (الأيام) • فهو يستوحى فى قصيدة (امرأة وشيطان) وصف أبى العلاء للدنيا بالفتنة والخيانة فى قوله :

لحاك الله يا دنيا خلوبا فأنت الغادة البكر العجوز (٩)

فيقول على طريقته :

أقسمت لا يعصى جبار هواها
أبد الدهر وان كان الهـا
لا ولا أفلت منهـا فـاتن
قربته واحتوته قبضتاها
قيل عنهـا انهـا سـاحرة
تتحدى سطوة الجسم سطاها
وعجوز بالصبا موعودة
وبعمر الدهر موعود صباها
جمعت علم الأوالى ووعت
قصص الحب ومأثور لغاها

ولئن كان أبو العلاء قد استمد خياله من تراثه العربى الأصيل فان المهندس استهواه أن يربط بصوره متأثرة بالخيال الغربى والثقافة الفرنسية المحدودة التى حصلها ؟ ولذلك انزلق على محمود طه الى ما لم يكن حكيم المعرة لينزلق اليه من عبارات وثنية ، لا يقصد معناها ؟ وذلك حين يريد التعبير عن عمومية الافتتان بالدنيا فيؤكد أن أحدا لا ينجو من فتنتها « وان كان الها » وكيف يتصور ذلك الا اذا كان هذا (الاله) البائس مصنوعا على المثال اليونانى القديم الذى أغرم الأوربيون بالحديث عنه نكاية فى الكنيسة والكهنوت والسلطة الدينية فى

---

(٩) ص٥٨١ من الديوان .

بلادهم ، ثم أغرم شاعرنا بتقليدهم دون سبب واضح أو مبرر معقول أو بصر بمعنى ما يقول •

وفى هذه المرحلة تبدأ عوارض الشـــيخوخة المبكرة من التأوه من الحاضر والتفجع على الماضى فى الظهور ، يقول فى قصيدة الشوق العائد التى تحمل عنوان ديوان قبل الأخير :

اهدئى يا نوازع الشوق فى قلبى
فلن تملكى لمـــاض رجوها(١٠)
آه هيهـــات ان يعـــود ولو
أفنيت عمـــرى تحرقا ولوعا
آه هيهـــات ان يعـــود ولو
ذوبت قلبى صـــبابه ودموعا
فاهـــدئى الان يا لثـــورتك
الهوجاء جبارة تدك الضـــلوعا
رحمة يا نوازع الشـــوق لو
ناديت ماضى ما وجدت ســـميعا
اســـدل القلب دونه الف ســـتر
عبـــرات ومثلهن نجيعـــا

وهكذا كان معظم شعر (الملاح التائهة) مرآة صادقة التعبـــير عن مشاعره الذاتية وحياته الشخصية ومشكلاته الخاصة •

(٥)

الى هنا رأينا أن على محمود طه قد انقلب فى شعره على مدرسة شوقى ، وحافظ وأصحابهما ، واتبع طريقـــة مطران والديوانين وجيل

---

(١٠) ص ٥٧٠ •

أبوللو الذين حرصوا على أن يكون الشعر مرآة صافية تعكس شخصية صاحبه وتصور حياته الخاصة بهمومها ومشكلاتها ومطامحها منصرفين عن تصوير الحياة العامة وهموم المجتمع ومشكلات الأمة وطموحاتها. على أن هذا لا يعنى أن شعر الملاح التائه خلا كله من تصوير هموم الأمة وحياتها والاهتمام بمشكلاتها فقد رأينا فى الديوان الأول تلميحا ولو من بعيد ــ الى الفقر والبؤس والشقاء وان كان يعالجه علاجا رومانسيا • وترى الآن أن هذا الديوان وما يليه من دواوين قد ضم عديدا من قصائد المناسبات • ففى الملاح التائه خمس قصائد رثاء أولاها فى طيارين مصريين احترقت بهما طائرتها والثانية فى سيد درويش والثالثة فى الملك فيصل الأول والرابعة فى الشاعر فوزى المعلوف والخامسة عدلى يكن بالاضافة الى قصيدتين عصماوين فى رثاء حافظ وشوقى •

والرثاء هو أكثر شعر المناسبات ظهورا فى ديوان المهندس وان لم يمنع ذلك من أن يكون له شعر كثير فى أنواع أخرى من المناسبات أكثر ملائمة لشخصيته المنبسطة لم يحرص على الاحتفاظ به فى دواوينه المتعددة ففى (ليالى الملاح) نجد قصيدتين فى تجديد ذكرى الشاعر حافظ ابراهيم والزعيم سعد زغلول ، وقصيدتين أخريين فى رثاء صديقه وعضو جماعة أبوللو النشط الشاعر الشاب محمد عبد المعطى الهمشرى وفى رثاء الزعيم السياسى محمد توفيق نسيم • واذا كانت هذه الأخيرة تكشف عن ضحالة وعيه السياسى فقد كانت له قصيدتا رثاء تضمنها ديوانه الأخير (شرق وغرب) برز فيهما تطوره الكبير من حيث نمو شعوره القومى احداهما فى استقلال سوريا • وفى الأخرى يحيى ذكرى القائد العربى السورى العظيم يوسف العظمة الذى استشهد أثناء نضاله ضد المعتدين الفرنسيين •

ويوضح ديوان (ليالى الملاح التائه) الى جانب كشفه عن تخلف فكر المهندس السياسى ورغبته فى أن يكون شاعر الملك الشاب فاروق اذ يتضمن قصيدة مديح وتهنئـــة بمناسبة اعتلائه العـــرش والأخرى بمناسبة زواجه من الأميرة فريدة وثالثة بمناسبة ميلاد شقيقته فريال وربما كانت هذه الرغبة مســتبعدة من تفكير الشاعر بحــكم العصر ولمناقضتها لأفكار أبوللو ودعوات شعرائها ونقادها ؟ غير أن استهتار الشاعر بالمبادىء وسطحية تفكيره لم تعصمه من أن يبدو على هذا النحو المتميع ولقد أتاح للشاعر فراغه أن يتشاغل بتسجيل أحداث خارجيـــة (بالرغم من نعى المجددين على المحافظين اهتمامهم بتسجيل الأحداث العامة ونظم الشعر فى المناسبات) ففى قصيدة يحيى الشـــاعر ربان احدى سفن الأسطول البريطانى الذى فضل أن يغـــرق مع سفينته عن أن ينجو بنفسه ؟ وفى أخرى يحيى أهالى مدينة (ستا لينجراد)(١١) على نضالهم الباسل ضد الحصار الألمانى فى الحرب العالمية الثانية مقارنا بين صمود المدينة السوفيتية وبين صمود مدينة طروادة أمام حصـــار جيوش مدن اليونان القـــديمة الذى دام عشر سنوات والغريب أن الشاعر لم يفكر فى الربط بين هذه الصور من البطولة والفداء وبين ما يزخر به التاريخ القومى لبلاده من صور تضارعها فى البطولة بل انه لم يحاول أثناء حماسته للغرب الأوربى أن يشير الى أية قضية خاصة بوطنه فضلا عن أن يناقش واحدة من المشـــكلات الكثيرة التى ينـــوء بحملها • وهكذا يسجل ديوان (ليـــالى الملاح التـــائه) ـ (أرواح وأشـــباح) ـ أكثر من غيرهما ـ عا الشاعر اغترابه عن بيئتـــه ، وافتتانه بالغرب يسجل احداثه ويمجد أبطاله ويعلى قيمه ومثله ويسهب فى وصف طبيعته ويتغنى بألوان المتع الحسية المتاحة فيه •

---

(١١) هكذا فى الديوان والمشهور ان المدينة التى حاصرها الالمان فى الحرب العالمية الثانية ثلاثة أعوام كاملة هى مدينة لينجراد ٠

فاذا انتقلنا الى الديوانين الأخيرين (الشوق العائد) و (شرق وغرب) بدأنا نلحظ ملامح نضج فى تفكير الشاعر وتطور فى اهتماماته واتساع عالمه لاستيعاب هموم أمته العربية الاسلامية وقضاياها على جانب قصائد مغامراته العابثة فى المدن والغابات الأوربية نجد قصيدتين لاستقبال العام الهجرى وقصيدة لتحية مؤتمر الزعماء العرب المنعقد بمصر فى خريف سنة ١٩٤٤ وفيها اشارة الى قضية فلسطين وتصوير الطموحات العربية التى لا تتحقق الا بتآلف الزعماء وتضافر جهودهم واخلاصها وفى قصيدة بعنوان (فارس الثانى) يندد بزعيم الفاشية الايطالية (بنتو موسيلينى) ويشير الى جرائم الاستعمار الايطالى وفظائع جيوشه فى الصومال وليبيا وعند ضرب اسطولهم لمدينة بيروت ويشيد بذكرى الشهيد عمر المختار • وفى قصيدة أخرى بعنوان (هزيمة الشيطان) يوازن بين القيم الروحية الاسلامية ــ كما فعل فى قصيدتين سابقتين عن الهجرة ــ وبين الواقع الانسانى المأساوى البشع الذى تجسده الحرب العالمية الثانية بكل ضراوتها وقوة التدمير الهائلة التى تفجرت أثناءها وفى قصيدة أخرى يستلهم شخصية القائد التاريخى طارق بن زياد فاتح الأندلس مستنهضا الشباب العربى الى جليل الأعمال • وفى ديوانه الأخير (شرق وغرب) بالتحديد يتجلى انتماء الشاعر ويتقد حسه القومى وتقع عينه على مضاعفات مشكلة فلسطين الآخذة فى التأزم التى أيقظت ضميره الانسانى بوزر ثقيل فاستشدته قصائد عديدة يستحث فيها همم العرب والمسلمين على النهوض لمجابهة مؤمرات الصهاينة ويستصرخ فيها الضمير الانسانى ويناشده التصدى لهذه الجريمة المنكرة ومن هذه القصائد (الى أبناء الشرق) التى جاء فى مقدمتها (هزت قضية فلسطين أقطار الشرق العربى وأثارت مواجد العالم الاسلامى وهذه القصيدة دعوة الحق يهتف بها الشاعر وهو فى سرير مرضه ، منبها الشرق الى واجبه،حافزا قراء الى الكفاح والنضال فى سبيل قضيته) وفى مطلعها :

دعـــوها منى واتركوه خيـــالا
فما يعرف الحق الا النضالا(١٢)

بنى الشرق ماذا وراء الوعـــود
نطـــــل يمينـــا وترنو شـــمالا

وما حكمـــة الصـــــمت فى عالم
تضـــــج المطـــامع فيه اقتتالا

زمانكمـــــو جارح لا يعـــف
رأيت الضـــــعيف به لا يـــوالى

ويومكمو نهـــــزة العـــاملين
ومضيعة الخـــــاملين الكسالى

وفى القضية نفسها ينظم قصيدة (يوم فلسطين) فى ذكرى وعد بلفور المشئوم ويقول مطلعها :

فلسطين لا راعتك صحبة مغتـــال
سلمت لاجيال وعشت لأبطـــــال

ولا عزك الجيل المفـــدى ولا جنت
لقـــومك نار فى ذوائب أجيـــــال

صحت باديات الشرق تحت غبارهم
على خلجات الروح من تربك الغالى

فوارس يستهدى أعنـــــة خيلهم
دم العرب الفادين والمؤدد المعالى

---

(١٢) ص ٧٥٣

هو الشرق لن يهدأ بصبح ولم يطب
رقادا عـــلى ليـــل رماك بزلزال

والقصـــيدة كما تبدى الأبيات السابقة ــ قوية الجرس عاليـــة النبرة بوزنها المنبسط وقافيتها المجلجلـــة الخطابية تعبـــر عن تدفق احساسات الشاعر وتناسب خطورة الموقف وحماسة المقام ؛ وان كانت لا تخلو من وهن فى مثل (اجبال) و (باديات) وهما جمعان نادران لجبل وبادية ومثل فتور الصورة فى البيت الأخير • ولعل ذلك الوهن يرجع الى تأخر اقبال الشاعر على الشعر القومى والحماسى من جهة والى مرضه الذي داهمه فى سنواته الأخيرة من جهة أخرى •

وفى ديوان (شرق وغرب) نقرأ أيضا قصيدة من الأعمـــاق التى نظمها بمناسبة لجوء الزعيم الفلسطينى الشيخ أمين الحسينى الى مصر وزيارته قصر عابدين فى يونيو سنة ١٩٤٦ وقصيدة بمناسبة اســـتقبال مصر للملك عبد العزيز آل سعود ينوه فيها بتاريخ العـــرب ويذكرهم بقضاياهم المعاصرة ويدعوهم الى الجدية والاتحاد ولا تستأثر قضية فلسطين باهتمام الشاعر دون غيرها من القضـــايا والهموم القـــومية وانما نلحظ منه اهتماما واضحا بما يجرى فى سوريا فيهنىء شـــعبها باستقلاله عن فرنسا ويحيى المجاهد السورى [فوزى القـــاوقجى] ويرثى الأمير شكيب ارسلان ويحيى ذكرى البطل يوسف العظمـــة فى عدة قصائد •

ويمتـــد حس الشـــاعر المرهف ليلـــتقط أخبـــار جهاد الشعب الأندونيسى المســـلم ضد الاســـتعمار الهولندى والتآمر البريطـــانى لمؤازرة الهولنديين فيما يرتكبون من جرائم بشعة ضد الشعب الأعزل وما ينتهبون من ثروات بلاده وكدح أبنائها الفقراء وفيها يقول :

سحائب حمر ؟ أم ســـماء تضرم ؟
أم الشمس يجرى فوق صفحتها الدم(١٣)

على مشرق الأصباح من أندونسيا
ســـيوف تغنى أم حتـــوف ترنم

وفوق رياها يزحف الموت ضـــاحكا
عـــلى جثث منهن يروى ويطعـــم

فراديس شرق ذيد عنهن أهلـــه
وهن لأهـــل الغرب نهبـــا مقسم

ولا تشغل قضايا العالم العربى والاســـلامى الشاعر عن قضـــايا بلاده الخاصة بطبيعة الأمر فيؤكد أصالة حسه الوطنى باعـــادة نشر قصيدة كان قد نظمها فى شبابه الباكر بمناسبة عودة سعد زغلول من منفاه سنة ١٩٢٣ وهى قصيدة (فى صفوف المجاهدين) وفى قصـــيدة باسم (مصر) يستنكر خلافات الزعماء السياسين وصراعاتهم الحزبية وما يراه من تكالبهم على مصالحهم الشخصية مغفلين الصالح العـــام (ويصفها بأنها من وحى الأسى والألم) ويقول فى مطلعها :

هـــوى لك فيه كان ردى يحب
فديتك ! هل وراء الموت حب ؟(١٤)

فديتك مصر كل فتى مشـــــوق
اليك وكل شـــــيخ منك حدب

---

(١٣) ص ٨١٦ ٠
(١٤) ص ٨١٦ ٠

ويحلم بالفـــدى طفـــل غطيم
وكل رضيعة فى المهـــد تجبو

أراك واينمـــــا وليت وجهـــى
أرى مهجـــــا اوجهـــك تشرئب

ويؤرقه القلق من تصدع وحدة أبناء الشعب الواحـــد فى مصر والسودان فيخاطب فى قصيدة (على النيل) أبناء الوادى الخصـــيب يدعوهم الى التمسك باتحادهم أمام فتنة الأعـــداء ومكايدهم • ومن مجموع هذه القصائد يتضح لنا أن هذا الشاعر كن على أعتاب مرحلة جديدة من حياته وكان قد بدأ بالفعل توظيف موهبته فى ابداع شعرى من لون جديد ملؤه حرارة وصدق يتغنى فيه بقيم أمته ويبث الروح فى تاريخها فيحييه فى قلوب قـــرائه ويدعوهم الى مواجهة مشـــكلات حياتهم بفاعلية وايجابية وحماس • ولولا أن أجـــله لم يمهله لكان من المحتمل جدا أن نظفر منـــه فى هذا المجال بآيات بديعة تتناســـب مع موهبته الأصيلة •

لقد أوتى على محمود طه موهبة طبية متدفقة بحيث أمكنـــه أن يصدر من الدواوين ما جمع فى مجلد ضخم وأكثر قصائده تصل الى الأربعـــين بيتا والكثير منها عمـــودى (ذو قافية واحدة) ومـــع ذلك فلا يبدو عليه شىء من الاكراه أو الوهن الذى يعرض لذوى المواهب الكرة الضعيفة وألفاظه الشاعرية منتقاة بعناية ، تشع بايحاءات ناعمة وتثير جوا خياليا خلابا يأسر بصـــوره الأنيقة لب القارىء المحـــدود الثقافة . وعباراته موسيقية تسيل رقه وعذوبة وسهولة اذ ينشر عالما من الأحلام المنغمة على ايقاعات شعره •• ومع هذا فهو قادر على الجزالة ـــ ان أراد ـــ فاذا كان أكثر شـــعره منظوما من الرمـــل والخفيف والمتقارب ، فانه يحسن فى الوقت نفسه ركوب عصا البحور المجلجلة،

ففى الديوان الأول من بحر الطويل قصيدة (الطريد) فتحس فيهـا رصانة السبك وقوة التركيب ؟ ونشعر أنه يتعمد اختيار مجزوء الرمل والخفيف وما أشبههما من البحور السهلة ليحشد فى شعره أكبر قـدر ممكن من الموسيقى التى تتيح له الغناء الحالم الذى اشتهر به •

ويقول فى قصيدته الطريد :

شقى أحبتـه الدياجى السـوادف
سليب رقاد أرقتـه المخاوف

ترامى به ليـل كأن سـواده
به الأرض غرقى والنجوم سوادف

ومشكلة على محمود طه أنه لم تكن لديه القضية الملحة المخلصة التى يوظف شعره لخدمتها ، ولا كانت لديه الثقافة العميقة التى تغذو شـعره بالموضوع الذى يجتذب اليه عقـل القارىء الناضج وقلبـه لا سمعه فقط ولا يقصر أغلبية جمهوره على الفتية الأحـداث وعندما عثر الشاعر على قضيته أخيرا وأرهف حسه وأذنه ليستمع الى مشكلات أمته ويتأثر بحياتها ويتبنى قضيتها ؟ عاجلته منيته ولم تمهله • نحن اذا مع الدكتور شوقى ضيف(١٥) حين يصفه بأنه ليس صاحب نزعة فلسفية فى شعره ولا هو صاحب نزعة نفسية ، وانما هو صاحب لغة شعرية تبعث النشوة فى نفس سامعيه وقارئيه بألفاظهـا البراقة وما تحمل من رنين يبدع فيه ويفتن ولكنك اذا أمعنت النظر فى هذا الرنين لم تجد فيه فكرا بعيدا ولا معنى عميقا وانما نجد فيه الألفاظ التى تضغط على الأعصاب بجمال ألحانها وأنغامها،ومع الدكتور طه حسين(١٦)

---

(١٥) شوقى ضيف ـ دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص١٩٩
(١٦) حديث الاربعاء جـ ٣ ص ١٦٦ •

حين يصفه بالقدرة على أن يكون شاعرا ممتازا نابغا جبارا فى نبوغه ان أراد ذلك بصقل موهبته بالثقافة العميقة ؟ ولكننا لسنا (١٧) مع من يصفه من النقاد بأنه كان يلبس لكل حال لبوسها ويتلون فى كل موقف باللون الذى يناسبه فالحـــق أن شخصية عـــلى محمود طه وطبيعتـــه السمحة ، كانت أبسط من ذلك • والأمور عنده أهون من أن يدبر لها ويحتـــال •

والواقع أن تناقله بين الحب والمجـــون والمشاعر القـــومية كانت تطورا تلقائيا فى رؤيته واهتماماته ولقد تولدت فى شعر المهندس خيوط القصيدة القصصيةوقد بدا ذلكأمرا طبيعيا غير متكلف نبع من طول نفس الشاعر واستحضاره المواقف العاطفية الحادة فى غزله ووقوفه أمـــام (أطلال حبه) من مشاهد الطبيعة يسترجع ذكرياته فى حضرتها•انظر فى ذلك قصيدتى (النشيد) و (انتظار) من الديوان الأول وانظـــر كذلك قصيدة (مخدع مغنية) التى تذكرك بقصص امرؤ القيس وعمر ابن أبى ربيعة فى أشعارهما •

وفى الديوان الثانى نشعر أن المهندس وقد تنبه الى هذا الاستعداد الجيد عنده وبدأ فى تطويره فتقرأ قصيدة (التمثال) وفيها يســـتلهم اسطورة (بيجما ليون) فيصبح الخيط القصصى متعمدا ومهيأ له بعناية وليس مرتجلا كما كان فى الديوان الأول • والقصيدة ترمز الى أحلام الشاعر وطموحه الرومانسى المحبط فهى تقص علينا هيام فنان بتمثاله وتمنية أن تدب فيه الحياة ويصبح انسانا ســـويا ، ولكن الوقت يمر والتمثال يظل رخاما يتحطم بيد الفنان نفســـه فى نوبه من انفعـــال عاصفة تودى بأحلامه الى الأبد ـــ انظر كذلك الى قصيدة العشـــاق

---

(١٧) رأى الشاعر عبد الصبور نقله عنه نشأت المصرى فى كتـــاب صلاح عبد الصبور الانسان والشاعر فى سلسلة المكتبة الثقافية ص٦٣ ،

الثلاثة وفيها نقد اجتماعى لاذع وسخرية مريرة من وفـــاء الأصدقاء وفى ديوان (أرواح وأشباح) نطالع ثمرة أقصى ما لدى الشـــاعر من امكانات فى ســـبيل ابدا الشـــعر القصصى فالديوان كله مجمـــوعة لوحات غير محكمة الربط تصور آلهة اليونان الوثنية وربات الفتنـــة والجمال وعشاقها عند الأوربيين وهى مع تفككهـــا لم تضف الى تراث الشاعر شيئا له قيمة اذ لا تعدو أن تكون نسيجا فجا لأحلام اليقظة التى تعمر أخيلة المراهقين وليس لتعدد الألوان والأصوات فيهـــا أى دور فى بناء عمـــل درامى ناضـــج ومع سذاجة هذا الانجـــاز الفنى وتواضعه ، فان شاعرنا يتراجع عنه فى دواوينه التالية ويعـــود الى طريقة ابن أبى ربيعة فنقرأ فى القسم الأول من ديوانه الأخير (شرق وغرب) عدة قصائد استوحى مادتها من وحى مهرجـــان أقيم بألمانيا سنة ١٩٤٦ لاحياء ذكرى الموسيقار رتشارد فاجنر ومن وحى ليلـــة أمضاها فى الغـــابات مع سيدة اسكندنافية ومن وحى الرحلة نفســـها نظم قصيدة (على حاجز السفينة) و (البحر والقمـــر) و (تحت الشراع) و (نحن من غنيسيا) ونحن حين نقرأ هذا الشعر معجبين بلغته وموسيقاه وعذوبته نشعر بأسف غير قليل على موهبة هذا الشاعر التى أهدرت فحرم ثمـــارها من البقاء وحـــرم العربية جهود شـــاعر موهوب آخر •